الخبر الساخر الاجتماعي في كتاب نثر الدر للآبي

أ.م.د. منير عبيد نجم

الباحث : أيوب عبد الرضا عبد الحسين

جامعة بابل – كلية التربية الأساسية – قسم اللغة العربية

الملخص:

إنَّ الخبر الساخر الاجتماعي هو نتاج ظروف اقتصادية متردّيَة، وهذا النوع من الأخبار قد ينطوي على فن الشكوى، وهو يدخل في مجال النقد الاجتماعي، أو في الأدب الفكاهي، وهناك العديد م العوامل التي ساعدت على ظهور هذا النوع من الأخبار، من أهمها: الفقر، والانحراف الأخلاقي، والتفاوت الطبقي في المجتمع.

الكلمات المفتاحية : (نثر الدر، الخبر الساخر، الاجتماعي).

The social satirical news in the book "Nath El Durr" by Al-Abi

Dr. Munir Obaid Najm

Researcher: Ayoub Abdel Reda Abdel Hussein

University of Babylon – College of Basic Education – Department of Arabic Language

Abstracts:

The satirical social news is the product of deteriorating economic conditions, and this type of news may involve the art of complaining, and it is included in the field of social criticism, or in humorous literature, and there are many factors that helped the emergence of this type of news, the most important of which are: poverty, moral deviation, and class inequality in society.

Keywords: (al-Durr's prose, satirical news, social).

تهيمن المضامين الاجتماعية والمقاصد الأخلاقية على سائر الاخبار في (كتاب نثر الدر) وتتمحور الموضوعات فيها حول البعد الأخلاقي والاجتماعي فقد اتبطت في بدايتها بالحياة اليومية وخاضت في مجال القيم والتقاليد متوسلةً باللسخرية والنقد سبيلاالى الاضحاك والامتاع . وقد تنكب الآبي عن تصوير القيم المثلى والبطولات الخارقة، مُستعيضاً عنها بلقطات أجتماعية واقعية، مستمده من واقع الناس، على ان الابي حرض خصوصاً على تتبع ما شهدته القيم الأخلاقية من تأزم. وقد اتخذ ذاك التأزم القيمي وجوهاً شتى لعل من ابرزها البخل والتطفل والكذب والخداع والمجون والاستهتار والطمع والكدية، والجهل، والسرقة، والغباء، والزنا، وغيرها من المضامين الاجتماعية ، بهدف تعريتها وكشفها ونقدها ، لأنها مما يتنافى مع ما يحقق التكاما الاجتماعي ، في مجتمع إسلامي هو المجتمع العربي، وسوف نأتي على ذكر بعضها .

أن من أكثر الظواهر التي سلطت الاخبار سهام نقدها اليها هي ظاهرة البخل التي رأى العربي فيها انتقاصاً يتأباه طبعه وخلقه الذي عرف به، ولأنه يتنافى مع ما يعتز به من كرم وايثار ، ومن هذه الاخبار ما ذكره الابي بقوله : ((... أقبل اعرابي يريد رجلاً وبين يدي الرجل طبق تين ، فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكساء كان عليه ، والأعرابي يلاحظه ، فجلس بين يديه ، فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فائراً. قال : فقرأ الأعرابي : (والزيتون وطور سينين) . قال الرجل : فأين التين ؟ قال : التين تحت كسائك)[١] .

تنطوي أخبار كثيرة على التشهير بالبخل وتدهور القيم العربية السمحة وتفشي الرديئة النخرة. (وقد يغدو الإفرط في هذا الامر مصدر إلحاق الضرر بالآخرين . وهو لايثير الدهشة من الطرقة العجيبة التي قد يسلكها البخيل في شحه ةتقتيره فحسب بقدر ما ينجر عن ذلك من عواقب وخيمة)[٢].حسبي أستدلالًا على ذلك هذا الخبر : (أُكل عند بخيل، وأمعنوا في الأكل، وأراد أن يقطعهم، فقال : ليس هذا أكل من يريد أن بتعشى)[٣]. فقد كان صاحب المائدة شديد الحرص عغلى طعامه حتى إنه ضيق على ضيوفه بمقاتعته إياهم. ثم نسج حيلة ساخرة غريبة حاول بمقتضاها استثمار طعامه وسد الطريق عليهم بل منعهم من مواصلة الأكل.

ويماثل هذا ايضاً ماحدث في هذا الخبر (وكان بعضهم يأكل ومعه على المائدة ابنه وزوجته، فقال: لعن الله الزحمة، فقال له ابنه: يا أبه، تعنيني؟ فليس ها هنا غيري وغير امي. قال: فترى اعني نفسي؟)[٤]، اذ يتجلى هذا المشهد الساخر حرص الرجل على الطعام ورغبته في تقليص عدد الأشخاص على المائدة.

وأما أبو الأسود فقد فاقهم شحاً وتكديساً للمال والطعام ذلك أنه لم يكتفِ بمنع الطعام للمحتاجين بل حرص على اتهامهم بأنهم كانوا سبب فقره وتردي أوضاع المنفقين (قال أبو الأسود الدوئلي : وكان بخيلاً : لو اطعمنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم)[٥]، لعل من شدة بخل أبو الأسود اخذ يسخر حتى من المحتاجين الذي لهم الحق على الأغنياء .

ومن هذه الأخبار قول الآبي: "قال بعضهم لبخيل،: لم لا تدعوني يوما؟ قال: لأنك جيد المضغ، سريع البلع، إذا أكلت لقمة هيأت أخرى، قال: أ فتريد مني إذا أكلت لقمة أن أصلي ركعتين ثم أعود للثانية؟)[٦]

ومن هذه الأخبار الساخرة أيضا التي تعكس حالة الفقر المؤدي إلى البخل داخل الأسرة، سرده لهذا الخبر:

(كان جعفر بن سليمان بخيلا على الطعام، فرُفعت المائدة من بين يديه وعليها دجاجة، فوثب عليها بعض بميه وأكل منها، وأُعيدت عليه من غدٍ، فلما رآها وقد أكل منها شيء قال: من هذا الذي تعاطى فعقر(٧)، قالوا ابنك فلان، فقطع أرزاق بنيه كلهم، فلما طال عليهم قال بعض بنيه: أفتهلكنا بما فعل السفهاء منها، فأمر برد نصف أرزاقهم)[٨].

وإذا نظرنا مثل هذه الأخبار الاجتماعية الساخره، ولا سيما في جانب البخل، وجدنا أن بها نوعا ما هجاء مقزعا، فالبخل ضد الكرم، والكرم أجل وأظهر صفة كان العرب يمدحون عليها، فلم يكونوا يودون المديح على شيء مثل المديح على الكرم، أما ابخل فإنه أشنع الخلال وأقبحها عندهم، ومن هنا فإن الخبر الساخر في هذا السياق إنما هو أشبه بالهجاء الشديد على النفس.

ويتضح من ذلك أن السخرية من البخل تتناقض مع الفخر بالجود، والذي تعوده العرب، ولم يمدحوا شيئا بمثله، (حّتى إّنهم عرفوا بنار القرى)[٩]، ومن هنا فقد كانت بعض كتب النقد القديمة تجعله والمديح في باب واحد تحت اسم باب (الأضياف والمديح)

ومن هذه الأخبار أيضا قوله: "قال بعضهم: بت عند رجل من أهل الكوفة، وهو من الموسرين المعروفين بحسن الحال، وله صبيان نيام بحيث أراهم، فرأيته في الليل يقوم فيقلبهم من جنب إلى جنب، فلما أصبحنا قلت له: رأيتك يا أبا جعفر البارحة تفعل كيت وكيت، قال: نعم، هؤلاء الصبيان يأكلون وينامون على اليسار، فيُمريهم الطعام فيُصبحون جياعًا، فأنا أقلبهم من اليسار إلى اليمين، لئلا يُنهضهم ما أكلوه سريعًا..)[١٠].

إن الخبر هنا على الرغم من سخريته إلا أنه يكشف عن أوضاع اجتماعية مزرية في ذلك العهد، ولا سيما أن الحالة الاجتماعية لذلك العصر كانت في غاية الصعوبة.

تلك بعض اخبار البخلاء التي ساقها الآبي في (نثر الدر) مستهدفاً فيها فضح سلوكهم الجشع والتشهير بحججهم التي يوظفونها قصد الحصول على المال بأي طريقه كانت.

ومن الظواهر الاخرى التي حشد لها الابي كما كبيراً من النقد في (نثر الدر) هي ظاهرة التطفل يحاول بذلك ان يصور حيل الطفيليين وممارساتهم بأسلوب ساخر جميل. حيث توحي بعض الاخبار بتدني المستوى الاخلاقي بين الافراد الناجم عن تفشي بعض العاهات السلوكية. ولعل أهمها التطفل الذي كاد يسود جل طبقات المجتع. (وتعد صورة النَّهِم المتطفل اِمتداداً لصورة البخيل ، فهو شَرِهٌ متهافت على الاكل، بل مُتعدّ على حقوق الاخرين ومُسيء للمؤاكلة)[١١] .

وقد وصف الآبي تلك الظاهرة عن طريق اخباره وشخصياتها. من ذلك (قيل لشيخ : ما أحسن أكلك! قال : عملي منذ ستين سنة)[١٢]. إذ لاتخفى على القارى براعة الشيخ الطفيلي في الاحتجاج، وروحه المرحه وحسه الساخر الفكاهي. ولقد رسم هذا الخبر صورة جلية تعبر عن حيل الطفيليين واستماتتهم في سبيل الطعام.

ومن هذه الاخبار ايضاً قوله (دخل طفيلي على قوم، وجلس يأكل مع الاضياف، فأستحيا صاحب المنزل من القوم، وكره ان يتوهموا أنه قد دعاه، وعاشرهم بمثلة، فقال: لادري لمن أشكر؟ لكم أذأجبتم دعوتي ام لهذا الذي جاء من غير أن ادعوه ؟ فعلم القوم أن الرجل طفيلي)[١٣].الخبر فيه نقد ساخر من الطفيلي الذي جلس مع الضيوف من غير ان دعوه صاحب المنزل .

كما تظهر اخبار أخرى ضرباً من المتطفلين يتمثل في قاضيين ظرفيين كانا متجاورين (قال كشاجم: أخبرت عن قاضيين ظريفين كانا متجاورين، أنّ أحدهما وجّه إلى الآخر في غداة باردة يدعوه إلى الهريسة، ويقول: إنها قد أحكمت من الليل، فردّ الرسول، وقال: قل له قد عققتني، ولم ترد برّي، لأن حكم الهريسة أن يدعى إليها من الليل فرجع الرسول فقال: ارجع فقل له: ذهب عنك الصواب ليس كل الهرائس تسلم وتجيء طيبة، فلم أدعك إلا بعد أن تبيّنت طيبها وصلاحها، فنهض إليه. فقالوا : أطول الليالي ليلة العقرب، وليلة المزدلفة، وليلة الهريسة)[١٤]. ذلك ان الطفيلي الذي تمت دعوته حرص على تأنيب مضيفه على عدم إفادته سلفاً ومنذ الليلة الآنفة أن على المائدة هريسةً حتى يتهيأ لها كما ينبغي الامر الذي جعل يسخر من صاحب الدعوة.

ولا يغيب عن (نثر الدر) دروس يتفنن بعض الطفيليين في إلقائها، وهي تعبر عن مدى البراعة في السلل الى الموائد. حسبي هذا الخبر (قال بعضهم : من جلس على مائدة، واكثر كلامه غش بطنه)[١٥]. او هذا (قال بعضهم : ليس شيء أضر على الضيف من أن يكون صاحب البيت شبعان)[١٦].

لقد الأكثر الآبي في تصوير ما يلجأ اليه الطفيليون من تحيل وخبث، مُستخدماً أسلوباً جدلياً قائماً على الحجاج تارة وعلى التهكم والسخرة تارةً أخرى.

وظاهرة أخرى كان لها نصيب في تلقي سهام الاخبار المؤثرة ، وهي ظاهرة الجهل (فمن مظاهر العامة المعروفة أن أكثريتهم يفتقرون الى الثقافة وأن الجهل يسود معظمهم)[١٧] ، كما يصوره هذه الخبر على لسان الحيوان : (قالوا : يقول الأرنب : أنا أسرع عدواً من كل كلب ، ولولا أني التفت

– فارى اللحى التي تركض أصحابها خلفي ، وأسمع صياحهم ، وأرى اجتهادهم، فيقع على الضحك تعجباً من عقولهم ، فأسترخي – لما لحقني قط كلب)[١٨] .

وقد كانت طبقة القصاص من بين الطبقات الأكثر تعرضاً لهذا النقد ، كما نلحظ في نوادرهم ، (قال قاص بالمدينة في قصصه : ود إبليس أن لكل منكم خمسين الف درهم يطغى بها . فقال رجل من القوم : اللهم أعط إبليس سؤله فينا)[١٩] ، وقد يكون ذلك بسبب أجابات هؤلاء القصاص التي تتنافى مع الحقائق المعروفة ، مما يثير التندر والسخرية بهم . كما توضح هذه النادرة : ((قال ابو علقمة : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا . قالوا له : فإن يوسف لم يأكله الذئب ، وإنما كذبوا على الذئب . قال : فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف)[٢٠].

وجاءت بعض الاخبار لتصف لنا جهل بعض القضاة، منها هذا الخبر: (أرتفعت امرأة مع رجل الى قاضي حمص ، فقالت أعز الله القاضي هذا قبلني ، قال القاضي قومي اليه فقبليه كما قبلك . قالت : قد عفوت عنه أن كان كذا . قال القاضي : فأيش قعودي ههنا ؟ حيث أردت ان تهبي جرمه، لم جئت الى هذا المجلس ؟ والله لا برحت حتى تقتصي من حقك ...)[٢١] فالخبر هنا يوجه نقده لهذا القاضي الذي دفعه جهله إلى القياس الخاطئ في حكم القصاص .

وتعد السرقة من الظواهر السلوكية المنحرفة التي حاولت الاخبار تصويرها ، وإبرازها بشكل واضح ، لتأكيد خطرها ، وضررها في المجتمع ، كما يقول هذا الخبر : (وجاء رجل الى أبي حنيفة) رضي الله عنه) فقال له : إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر لأغتسل ، فإلى القبلة أفضل أتوجه أم الى غيرها ؟ فقال له : الأفضل أن يكون وجهك الى ثيابك التي تنزعها لئلا تسرق)[٢٢] . وقد يأتي الخبر على لسان السارق نفسه ، وبأسلوب ساخر وجميل كما في هذا الخبر : (أخذ قوم لصاً ومعه كارة من ثياب قد سرقها ، فجهدوا به ان يخلي عنها فلم يفعل ، وجعل يقول : أنا تائب على أيديكم . قالوا : فدع الثياب فقال : يا غفلا ، فبأي شيء استعين على التوبة ؟)[٢٣] .

وظاهرة أخرى كانت لها الاخبار بالمرصاد ، لمنافاتها الاخلاق الاسلامية الاصيلة ، وهي ظاهرة الزنا ، كما في هذا الخبر : (قال إسحاق : أتي أبن ابي مساحق بابن أخت له وقد أحبل جارية من جواري جيرانه فقال له : يا عدو الله ، إذا ابتليت بالفاحشة فهلا عزلت ! قال : جعلت فداك : بلغني ان العزل مكروه ، قال : أفما بلغك أنّ الزنا حرام)[٢٤] . وفي بعض الاحيان لا يصرح الخبر بشكل مباشر بذلك ، وأنما يعمد الى التلميح لماله من أثر كبير كهذا الخبر : (تزوج رجل امرأة ، فلما كان اليوم الخامس من زفافها ولدت أبناً . فقام الرجل وصار الى السوق وأشترى لوحاً ودواة ، فقالوا له : ما هذا ؟ قال : من يولد في خمسة أيام يذهب إلى الكتاب في ثلاثة أيام)[٢٥]

ومن السلوكيات التي أستهجنتها الاخبار هي ظاهرة الثقلاء ، وما يسببونه من أذى نفسي للبعض في مجتمع شاع فيه مفهوم الظرف والظرفاء بشكل كبير، كما في هذا الخبر : (دخل بو حنيفة – رحمة الله عليه – على الاعمش يعوده فقال : يا ابا محمد ، لولا أنه يثقل عليك لعدتك في كل يوم . قال : أنت تثقل علي وأنت في بيتك ، فكيف في بيتي ؟)[٢٦] .

ونلحظ الكثير من الاخبار وهي تصور لنا الكثير من التصرفات لفئات من الناس ، قد عرفوا بالغفلة والغباء والحمق ، فصاروا بذلك مضرباً للأمثال ، ورموزا لنقص العقل والبلادة كما في هذا الخبر : (سال رجل الشعبي عن المسح على اللحية فقال : خللها بأصابعك . فقال : أخاف أن لا تبلها . قال الشعبي : إن خفت فأنقعها من أول الليل)[٢٧]. ومن الاخبار الطريفة في هذا الاتجاه، ما يرويه هذا الخبر عن بعض الحمقى : (قال بعضهم: رأيت رجلا محموماً مصدعاً ، وهو يأكل التمر ، ويتكرهه . فقلت له ويحك ! لم تأكل هذا في حالك هذه ؟ هذا يقتلك . فقال : عندنا شاة ترضع وليس لها نوى ؛ فأنا أكل هذا التمر مع كراهيتي له ؛ لأطعمها النوى . قال : فقلت : فأطعمها التمر بالنوى . قال : أو يجوز هذا ؟ قلت : نعم . قال : قد – والله – فرجت عني ، لا اله الا الله ، ما أحسن العلم)[٢٨] . ومن خلال ما تقدم قد تبين لنا كيف لعبت الاخبار دورا في نقد بعض السلوكيات السيئة في المجتمع .

ذهبت مجموعة من الاخبار الاجتماعية الى انتقاد أمتهان المرأة من بعضهم ، وإنزالها دون مكانتها اللائقة بها ، وأخذت هذه الاخبار تصور ازدراء واحتقار المرأة من قبل الرجل الذي يمثل السيد المطلق دائماً ، فكان لا بد وأن تعامل المرأة على انها من سقط المتاع كما يوضح هذا الخبر : (قالت امرأة مزيد لجارة لها : يا أختي ؛ كيف صار الرجل يتزوج بأربعة ويملك من الإماء ما يشاء ، والمرأة لا تتزوج الا واحدا ! ولا تستبد بمملوك ؟ قالت لها : يا حبيبتي ؛ قوم الانبياء منهم ، والخلفاء منهم ، والقضاة منهم ، والشرط منهم ، تحكموا فينا كيفما شاؤوا وحكموا لأنفسهم بما ارادوا)[٢٩]. فهذا الخبر يعكس بوضوح احساس المرأة بالتسلط الذكوري ، في مجتمع بدأت المرأة تتطلع فيه الى دور أكبر في الحياة ، ومحاولة التخلص من النظرة الدونية لها على انها مما يتلهى به .

وتعتبر المرأة شكل مادي، وهذا الشكل هو المجسد لجمالها وأنوثتها؛ لذلك فإن السخرية منها أو من جسدها له الأثر البالغ في نفسها، ومن الغريب أن نجد من الشعراء من يلاحق زوجته بسخريته واستهزائه، ويصورها بأقبح ما عنده ، لكن مثل هذه الغرابة قد تزول عندما نعلم أن هذا اللون انحصر عند قّلة من الشعراء، كان كبيرهم في العصر العباسي أبا دلامة الذي عرف بمواقفه المبتذلة التي دفعته للسخرية من نفسه[٣٠] ومن أولاده وأمه[٣١] وزوجته؛ وذلك رغبة في إرضاء الخليفة أو طمعا في عطائه أو عطاء زوجته.

وقد سرد الآبي من هذه الأخبار أيضا، فقال منها: (تزوج أعرابي امرأة أشرف منه حسبًا ونسبا فقال: يا هذه: إنك مهزولة. فقالت: هُزالي أولجني بيتك)[٣٢] .

ومن هذه الأخبار قوله: (نظر رجل لامرأتين يتلاعبان فقال: مُرَّ لعنكما الله فإنكنَّ صواحبات يوسف، فقالت إحداهما: يا عمي ، فمن ربى به في الحب، نحنُ؟ أم أنتم؟)[٣٣].

ومن ما سرده الآبي عل لسان الجاحظ قوله: "قال الجاحظ: ومن الأسجاع الحسنة: قول الأعرابية حين خاصمت ابنها إلى عامل الماء: أما كان بطني لك وعاء؟ أما كان حجري لك فناء، أما كان ثديي لك سقاء)[٣٤] .

ويمكن لنا بالمقابل ان نفهم بشكل واضح وجلي ازدراء المرأة وانتقاص قدرها ، من خلال الكثير من الاخبار ، كما في هذه الخبر : (كان رجل يكثر الحلف بالطلاق ، فعوتب في ذلك ، فقال : أحضروها فإن كانت تصلح لغير الطلاق فأقتلوني)[٣٥] . وبعضها قد وجه نقداً لاذعا للمرأة كهذا الخبر : (قالت امرأة مدينية لزوجها : احفظ صحبة ثلاثين سنة . فقال : ما دهاك عندي غير ذلك)[٣٦] . فضلاً عن الكثير من الاخبار التي تخص الإماء والجواري والتي يغلب عليها طابع الفحش والمجون[٣٧]

اما ظاهرة المُجون والاستهتار فقد أكثر الأبي في اخبارة من تركيز النظر في هذه الظاهرة بغية فضحها والتشهير بأصحابها. بذلك قد أظهر الكثير من وجوه الانحلال حتى أتت على مختلف المثل من ذلك: (حكي عن ابن أبي طاهر قال كنت مع علي بن عبيدة في مجلس ومعه عشيقة له فجلسنا حتى فاتتنا صلاة الظهر. فقلت له: قم حتى نصلي، فقال: حتى تزول الشمس – يعني عشيقته)[٣٨] فعلي بن عبيدة هذا النموذج المستهتر بالدين الحنيف لم يكتف بإهماله الصلاة ،وتفويتها، بل إنّه لم يستجب حتى لنداء صاحبه الذي ألح عليه بتداركها متماديًا في مجونه. ويتعاظم مثل هذا الأمر لدى الرجل الذي أراد بمجونه الاقتراب من امرأة كانت ماضية في حال سبيلها، وإذا به يكتشف أنّها زوجه: (قال بعضهم: مررت ذات يوم بشارع السرى بسر من رأى فرأيت امرأتي تمشي فظننتها من البادية، فتعرضت لها وقلت: إلى أين يقصد الغزال؟ فقالت لي: إلى مغزلها يا قليل المعرفة بأصحابه)[٣٩] . ويصوّر راوي الآبي حالة أخرى من حالات المجون بطلتها امرأة خانت زوجها وخدعته قبل زواجها به (تزوج رجل بشيراز امرأةً فلما كان في اليوم الخامس من زفافها ولدت ابنا، فقام الرّجل وصار إلى السوق واشترى لوحا ودواةً فقالوا له: ما هذا؟ قال: من يولد في خمسة أيّام يذهب إلى الكتاب في ثلاثة أيام)[٤٠] . وهي رغم خيانتها وتسترها على جرمها فإنها أيضًا لم تُعلم زوجها بحملها إلا بعد أن ألزمته بالزواج منها.

وأما أصحاب الشراب والسكر الذين مثلوا أعلى مراتب المجون فقد ساق الأبي ما يفضحهم في اخباره وآية ذلك هذا الخبر (شرب داود المصاب مع قوم في شهر رمضان ليلا، وقالوا له في وجه

السحر : قم فانظر هل تسمع أذانا؟ فأبطأ عنهم ساعةً ثم رجع فقال: اشربوا فإني لم أسمع الأذان سوى من مكان بعيد)[٤١] .

وراوي الآبي يركز في هذه الخبر على إزراء أحد المتهتكين بالأمير وعدم توقيره إيَّاه: (قيل لبعض المُجان: البشرى فقد رزق الأمير البارحة ابنا، فقال: سمعت هذا الخبر من يومين قيل له: إنّما ولد البارحة، كيف سمعته أنت من يومين؟ قال: خبر السوء يتقدم بثلاثة أيام)[٤٢] . فقد اعتبر هذا المدّعي أنّ إنجاب الأمير مولودًا يخلفه من الأخبار السيئة والمحزنة.

ومن الاخبار التي تدلّ على عدم مبالاة هذه الفئة بمصائب الغير واستهتارها وتشفّيها ما ورد في هذا الخبر : (مرَّ ماجن بالمدينة برجل قد لسعته عقرب، فقال: أتريد أن أصف لك دواءها؟ قال: نعم. قال عليك بالصياح إلى الصباح)[٤٣] . وما من شك في أن الآبي فصل القول في تدني المستوى الأخلاقي وتأزمه في مجتمعه فنقل منه في اخبارة الساخره التي هي في حاجة ماسة إلى الإصلاح .

وقد سرد الآبي كثيرا من أخبار الكذب الخداع ، وهي من الأخبار الساخرة الاجتماعية التي احتلت مساحة كبيرة من كتابه، ومنها ما تستهل به بهذا الخبر: "قدم بعضهم رجلا إلى القاضي وادعى عليه مالا فقال: "صدَقوا، اسألهم أن يؤخروني حتى أبيع مالي أو عقاري، أو رفيقي أو أبلى، فقالوا: كذب أيها القاضي، ما له قليل أو كثر، ولكنه يريد مدافعتنا، فقال: أصلحك الله، فد شهدوا بالعدم، فخلى سبيله"(٤٤).

فقد كشف الخبر عن احتيار المتهم لإخراج نفسه من هذه التهمة، ولو ادعى الإنكار من اللحظة الأولى لما كانت هذه النتيجة، ولكنه مكره وخداعه بصاحب المال اذي جعل صاحب القضية ينطق ببراءته أما القضاء.

وقد كثر هذا اللون من الأخبار لكثرة أصحابه في عصر الآبي، ومن هذه الأخبار أيضا عن قوله ناقلا عن المغيرة ابن شعبة: "قال المغيرة ابن شعبة: ما خدعني غير غلام من بني الحارث بن كعب، فإني ذكرت امرأة فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، قلت: ولمَ؟ قال: رأيتُ رجلا

يُقبلها، فأضربتُ عنها فتزوجها الفتى، فأرسلتُ إليه: ألم تُعلمني كذا وكذا من أمرها؟ قال: بلى! رأيت أباها يقبلها"(٤٥).

ولا شك أن ذلك اللون من هذه الأخبار الساخرة تصور جانبا مهما من المجتمع، وترسم صورة واضحة لقطاع عريض من الناس الذي شكلوا حياة هذا المجتمع.

كما تحفل اخبار(نثر الدر) بالكذب والخداع اللذين يلوذ بهما رهط من البشر همه إدراك مآربه. بل إنّ الآبي لم يقتصر على ما يقدمه مجتمعه من عينات واقعية، وإنما سعى إلى التوسل بأخرى خيالية شأنها شأن حكايات (كليلة ودمنة) المثلية، ضاربا بها المثل على ما للمكر والدهاءمن سلطان من حسبي هذا الخبر:(وقالوا: صاد رجل قديرة، فلما صارت في يده قالت ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أريد أن أذبحك واكلك قالت: فإني لا أشفي من قرم ولا أشبع من جوع، وإن تركتني علمتك ثلاث كلمات هي خير لك من أكلي، أما الأولى فأعلمك وأنا في يدك، وأما الثانية فأعلمك وأنا في الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل. فقال: هاتي. فقالت: لا تلهفن على ما فاتك فتركها وصارت على الشجرة ثم قالت: لا تصدقن بما لا يكون، ثم قالت: يا شقي، لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين هما خير لك من كنز فعض على شفتيه متلهفا ثم قال: علميني الثالثة. فقالت: أنت قد أنسيت الثنتين فكيف أعلمك الثالثة؟ ألم أقل لك: لا تتلهفنَّ على ما فاتك، ولا تصدقن بما لا يكون؟ أنا وريشي ولحمي لا أكون زنة دُرّتين، فكيف يكون في حوصلتي ذاك؟ ثم طارت فذهبت)[٤٦] ففي هذا الخبر أتقنت القنبرة خطة مراوغة الصيّاد بغية النّجاة من : فانطلت عليه حيلتها، وتحقق لها ما أرادت.

في حين ذهبت مجموعة من الاخبار الاجتماعية الى إظهار التبرم من ذلك التمايز الطبقي بين فئات الناس ، بطريقة ساخرة كما يصوره هذا الخبر : (قال ابو العيناء : قلت لمديني شكا إلي سوء الحال : أبشر فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية . قال : أجل ، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد)[٤٧] . وخبر أخر كان أكثر أيحاء وتعريضاً بسوء الحال جاء على لسان مزيد المديني : (أحتاج مزبد أن يبيع جبته لسوء حاله ، فنادى عليها المنادي ، فلم يطلب بشيء ؛ فقال : ما كنت اعلم اني كنت

عرياناً الا الساعة)[٤٨] . على أن التمايز الطبقي قد يكون ثقافياً أحياناً ، لذا نجد تهكماً وسخريتاً بطبقة البدو الاعراب ، لبعدهم عن مركز الحضارة الاسلامية .

تعرضت الاخبار إلى مختلف شؤون الحياة، لكونها هي ممارسة أدبية ثقافية اجتماعية تولد وتتشكل في حضن المجتمع بمختلف طبقاته ومستوياته، ومن ثم تنمو وتستقر فيها لأنها تتعرض إلى كل المظاهر الاجتماعية والطبقية والثقافية فيه. ولما ازدهر النثر في العصر العباسي نالت الخبار نصيبها من هذا الازدهار وكان لمقبوليتها لدى الطبقات التي تلقتها وتناقلتها دور كبير في ازدهارها.

وعلى هذا الأساس يمكن أن يعالج الخبر أكثر من قضية وأن تدل على أكثر من دلالة ومقصد، ويستنبط منه أكثر من نتيجة، بما يحمله من مضامين اجتماعية ذات إيحاءات وانساق سياسية واقتصادية، ولأن (أساس الحياة الاجتماعية الحالة الاقتصادية التي تسيطر على الناس من حيث لا يشعرون)[٤٩] ، أصبح من المهم تسليط الضوء على الظواهر الشائعة في المجتمع العربي التي تلمح جملة من الثنائيات، تستدعي كل واحدة منها أختها، ومن أبرز هذه الثنائيات (الفقر والجوع) اللتان تستدعيان (الغنى والشبع)؛ لأنَّ فضائل الكرم والضيافة ومظاهر الاستجداء والتطفل ووأد البنات والتكسب بالشعر كلها تمتد جذورها لمشكلة الجوع[٥٠]. وكلما عم الجوع والقحط وبرز من يتصفون بالكرم، أخذ العرب ينشدون بهم الأشعار ويضربون بهم الأمثال، وما هذه الظواهر الاجتماعية العربية إلا بسبب الطبقية الاقتصادية التي عاشها الإنسان العربي طوال العصور القديمة.

فضلاً عن كون الاخبار الساخرة تزرع الفكاهة فإنها تفضح الظلم والعدوان والقهر، إذ إنَّها تترجم قضايا المجتمع من فقر وجوع وألم وانكسار ، فتصبح تجربة للحياة تنهض بالإشهار الطبقي والاستلاب الاقتصادي الذي يخترق بنية الذات الاجتماعية ضمن سياق ثقافي تسلطي يحكم الأفراد ويحدد معيشتهم ورغباتهم، كما في هذا الخبر الذي يرويه الأبي (قيل لمديني: ما طعامك؟ قال: الخل والزيت. قيل أقتصبر عليهما؟ قال: ليتهما يصبران علي)[٥١] .

هيمن على النص سياق الموقف والحالة الاقتصادية، وقد عالج المديني هذه القضية بأسلوب ساخر، فهو يسخر من حالته المعيشية فجاء رد فعله تجسيدًا للألم والمرارة، ويبدو أنَّ هذه السخرية تضمر خلفها نقدًا لسلطة الترف وأهدافها باستعباد المجتمع لتصبح السلطة هي المتحكمة والمهمشة في الوقت ذاته.

إن الوظيفة الاقناعية بما تحمله من تهكم ومفارقة تسعى إلى وصف الحالة الاجتماعية بصورة فكاهية، بينما تروم الوظيفة الثانية المتوارية خلف الخطاب الفكاهي إلى التعريض بالسلطة والسخرية منها ومن ثُمَّ فضح تسلطها على الرعية. ومن طريق الوظيفة الأولى تستطيع الشخصية تمرير النسق المعارض، كما في الخبر الآتي: (ولي العلاء بن عمرو بلاد سارية، وكان جائزاً فأصاب الناس القحط، وأمسكت السماء قطرها، فخرجوا يستسقون، وصعد العلاء المنبر ، فقال في دعائه : اللهم أرفع عنا البلاء والغلاء فوتب معتوه كان بها فقال والعلاء ؛ لأنه شر من الغلاء، وأغلظ من البلاء. فضحك الناس، وخجل العلاء والصرف) . يشكل هذا الخبر كما الاخبار التي سبقتها – وثيقة تاريخية اجتماعية، صيغت بأسلوب ساخر لرصد الحالة الاقتصادية من غلاء ،وقحط، كما أنه سلط الضوء على التسلط السياسي وجور السلطان في حكمه، وفي سياق هذا التوثيق الذي اضطلع به الخبر فإنه يعد نصاً أدبياً قائماً على الهزل والحجاج، فالعلاء كان سبباً في الغلاء، وقد ورد الاستدلال على ظلم الحاكم من طريق الواقع الأليم، فالواقع نقطة انطلاق الحجاج الهزلي الذي أدرج في السياق وشحنه بمعنى آخر حول دعاء الاستقاء إلى دعاء على العلاء .

بناءً على ما سلف، يتجلى أن الاخبار الاجتماعية صنف لا يختلف عن بقية الأصناف الأخرى من حيث السمات والمقومات التي تعتمدها الاخبار عموماً في ادبنا العربي .

ولاشك أن هذا اللون من الاخبار الساخرة تصور جانباً مهماً من جوانب المجتمع، وترسم صورة واضحة لقطاع عريض من الناس الذين شكلوا حياة ذلك المجتمع .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

[١]) نثر الدر في المحاضرات ، الوزير الاديب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١ ه) ، تح : خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ج ٣/ ١٥٧.
[٢]) بلاغة النادرة، محمد ميشال، ص ٧٥ .
[٣]) نثر الدر ج ٣ / ٢٧٨ .
[٤]) نثر الدر ج ٣ / ٢٨٢ .
[٥] المصدر نفسه /٢٧٦.
[٦]) نثر الدر، ج ٣/ ١٩٩.
[٧]) إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى: (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر)، سورة القمر، آية: ٢٩
[٨]) نثر الدر، ج ٢/ ٢٠١.
[٩]) نار القرى: تعني نار الضيافة ، وهي نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل وقد كانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر، وربما أوقدوها بالمنديل الرطب، وهو عطر ينسب إلى مندل ، وهي بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به ليهتدي إليه العميان، وهذه النار عندهم أجلّ سائر نيرانهم.
يُنظر: الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ١ / ٦٩ – ٧٠ .
[١٠])| نثر الدر، ٢ / ٢٠٤
[١١]) بلاغة النادرة، محمد ميشال، ص ٨٧
[١٢]) نثر الدر، ج ٢/ ٣٣٦.
[١٣]) نثر الدر، ٢ / ١٨٦.
[١٤])المصر نفسه / ص ٢٤٢.
[١٥]) المصدر نفسه / ص ٢٣٥.
[١٦]) المصدر نفسة / ج ٢/ ٢٣٤.
[١٧]) لحياة الاجتماعية في العصر العباسي (بحث) ، د.حسين امين ، مجلة التراث الشعبي ، السنة الثامنة والثلاثون ، ٢٠٠٧م
[١٨]) نثر الدر ج ٤ /ص ١٤٥
[١٩]) المصدر نفسة ج ٤ / ص٢٠٥.
[٢٠]) المصدر نفسة ج ٤ / ٢٠٠.
[٢١]) نثلر الدر ج ٤ / ٢١٧ .
[٢٢]) المصدر نفسة ج٢ /
[٢٣]) نثر الدر ج ٧ / ١٤٢ .
[٢٤]) المصدر نفسه ج ٤ / ٢٢٢
[٢٥]) نثر الدر ج ٤ / ٢٢٥ .
[٢٦]) المصدر نفسه ج ٢ / ١٠٨ .
[٢٧]) المصدر نفسه ج ٢ / ١٠٥ .
[٢٨]) المصدر نفسه ٧ / ٢٠٢ .
[٢٩٢٩]) نثر الدر ج ٣ / ١٦٣ .
[٣٠])الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين (ت: ٣٥٦ ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٤ م، ١٠ / ٤٢٢.
[٣١]) المصدر نفسه / ١٠ / ٤٢٣ .
[٣٢]) نثر الدر ج ٢ / ٢٦٥ .
[٣٣] نثر الدر ج ٢ / ٢٦٥ .
[٣٤]) المصدر نفسه ج ٢ / ٢٦٦ .

[٣٥]) المصدر نفسه ج ٢ / ١٤٩ .
[٣٦]) المصدر نفسة ج ٢ / ١٦٦ .
[٣٧]) ينظر نثر الدر ج ٢ / ١٦٠- ١٦١ .
[٣٨]) نثر الدر ج ٤ / ٣٠٣ .
[٣٩]) المصدر نفسه ج ٤ / ٣٠٤ .
[٤٠]) المصدر نفسه / الصفحه نفسها .
[٤١]) المصدر نفسة ج ٦ / ٥٤١ .
[٤٢]) نثر الدر ج ٦ / ٥٤١ .
[٤٣]) المصدر نفسه / ٥٤٤ .
[٤٤]) نثر الدر، ٢ / ٣٠٣ .
[٤٥]) نثر الدر، ٢ / ٣٠٥ – ٣٠٦ .
[٤٦]) نثر الدر ، ج ٧ / ٢٧٧ .
[٤٧٤٧]) نثر الدر ج ٢ / ١٦٤ .
[٤٨])| المصدر نفسه ج ٣ / ١٥٨ .
[٤٩]) الحياة الأدبية في العصر العباسي، د. محمد خفاجي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٤ : ٢٤ .
[٥٠]) ينظر فكاهات الجوع والجوعيات : خالد القشطيني، دار الحكمة، ط١، ٢٠١١ : ٤_٥ .
[٥١]) نثر الدر ج ٢ / ١٦٣ .